من قال إن في الإسلام مذاهب فقهية متخاصمة؟!

محمد السعيد مشتهري

إن كثيرا من أئمة وفقهاء الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، يتعاملون مع القرآن باعتباره مصدرا معرفيا لإعداد الدراسات القرآنية، والخطب المنبرية، واستنباط الأحكام الشرعية، وليس باعتباره «الآية الإلهية» التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهي تحمل آليات تفعيلها في ذاتها!!

فإذا سألناهم: لماذا لم تُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بنصوص هذه «الآية القرآنية»؟! «رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»!!

لقد مات أئمة السلف، وحملوا معهم تدينهم وتفاعلهم الفقهي مع واقعهم، و«الدين الإسلامي» نظام متحرك مع حركة الحياة وتطورها، يتفاعل مع واقع الناس بفقه معاصر، فأين هذا الفقه المعاصر الذي يستطيع أن يدير بحكمة واقتدار الأزمات والتحديات التي يواجهها العالم اليوم.

أين هذا الفقه الإسلامي المعاصر، الذي قدمته المؤسسات الدينية الرسمية، وغير الرسمية، والذي قدمه أئمة وفقهاء المذاهب العقدية والتشريعية المختلفة، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بصورة عملية علمية، تتفاعل مع الواقع المعاصر؟!

ثم ما قيمة منابر الدعوة الإسلامية، بوسائلها الإعلامية المختلفة، إذا لم تستطع أن تحول الكلام إلى عمل خارج أبواب المساجد، وخارج استديوهات القنوات المحلية والفضائية؟! وما قيمة الدراسات الأكاديمية إذا لم تتحول إلى نهضة وتقدم حضاري، وما قيمة المؤتمرات والندوات، وبيانات الشجب والإدانة، إذا لم تتحول إلى واقع عملي يراه الناس؟!

إن الإشكال يكمن في أن «الدين» تحول من كونه نظاما متحركا مع حركة الحياة وتطورها، إلى نظام مؤسسي لا فاعلية له في واقع الناس إلا «الخطاب الديني»، كما تحول «الإسلام» من كونه دينا إلهيا مرجعيته نصوص «الآية الإلهية»، إلى دين بشري مرجعيته «الروايات البشرية»، والفقه السلفي!!

لقد بيّن الله تعالى أن نصوص «الآية القرآنية»، التي ارتضاها للناس دينا، لا فاعلية لها في عالم الأموات، فقال تعالى:

«...إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ - لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ»

تدبر قوله تعالى: «لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا»، أي أن القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو الذي يجب تفعيل نصوصه اليوم بصورة عملية، وبفقه معاصر، ولذلك وصفه الله بالنور الذي يحمل معه البرهان على أنه من عند الله، فقال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا»

ولقد بيّن الله تعالى أن هذا النور يجب أن يصل إلى قلوب الناس، فقال تعالى:

«أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

انظر وتدبر قوله تعالى: «يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ»، ولم يقل: «بين النَّاسِ»، لبيان أن هذا «النور» يجب أن يصل إلى قلوب الناس، وذلك بالتفاعل الحي مع واقعهم، إيمانا وعملا صالحا، ولا يكون مجرد زينة ظاهرة، تحمل خطبا منبرية، وفتاوى عشوائية، لا فاعلية لها في حياة الناس!!

فأين نحن اليوم من هذا النور؟! وما هو الدور الذي تقوم به المؤسسات الدينية لإخراج المسلمين (قبل إخراج الناس) من ظلمات التفرق والتخاصم في الدين إلى نور الوحدة والتكامل، من ظلمات الجهل والأمية إلى نور العلم والمعرفة، من ظلمات الإرهاب والتطرف الديني إلى نور الإسلام والسلام؟!

إن الإشكال يكمن في أن المؤسسات الدينية قامت على «رجال دين»، وهؤلاء مرجعياتهم هي أمهات كتب أئمة السلف، فكيف سيتحركون بهذه الكتب مع حركة الحياة وتطورها، وهم يؤمنون أنه لا اجتهاد مع النص، وأن هذا النص هو ما دونه أئمة السلف في أمهات الكتب!!

ولكن الإشكال الأكبر، أنك إذا سألتهم: هل في الدين الإسلامي «رجال دين»؟! تراهم على الفور يتلون عليك قوله تعالى (التوبة/١٢٢):

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»!!

فتعالوا نفهم هذه الآية في سياقها القرآني، لنقف على معنى «التفقه في الدين»، وهل معناه أن يكون هناك «رجال دين»، لا يحملون إلا «العلوم الشرعية»، بمعزل عن التخصصات العلمية المختلفة، من طب وهندسة وزراعة..، وتقنيات حديثة، وعلوم عسكرية؟!

(أولا): لقد استخدم السياق القرآني كلمة «الفقه» للحديث عما يخفى علمُه، أو يحتاج إلى جهد علمي، أو تقني، للوقوف عليه، كقوله تعالى:

«فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» -- «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» - «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ».

ولم يستخدم القرآن كلمة «فقه» للتعبير عن علم من «العلوم الشرعية» اسمه «الفقه»، يتخصص فيه علماء الفرق والمذاهب المختلفة، كلٌ حسب توجهه العقدي والتشريعي!!

إذن فـ «التفقه» في الدين، في قوله تعالى: « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»، لا علاقة له بفقه المذاهب العقدية والتشريعية المختلفة، الذي ظهر بعد قرون من نزول القرآن، وقام بتفريغ الشريعة الإسلامية من جوهرها ومقاصدها العليا، وجاء للناس بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان!!

(ثانيا): لقد جاءت كلمة «الدين»، في السياق القرآني، بأكثر من معنى، والمعنى الذي استخدم في سياق هذه الآية هو النظام الذي يلتزم به الناس في إدارة حياتهم، سواء كان حقا أو باطلا، صالحا أو فاسدا، فقد سمى الله ما عليه مشركو العرب من وثنية دينا، فقال تعالى: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ»، أي في نظام وشريعة الملك، وقال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ»، أي إن النظام والمنهج والشريعة التي ارتضاها الله لحياة الناس هي الإسلام: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».

إذن فكلمة «الدين» وحدها لا تعني «الإسلام»، إلا إذا أضفنا صفة الإسلام إليه فقلنا: «الدين الإسلامي»، كما نقول الدين المسيحي، أو اليهودي، أو إلا إذا دل السياق عليه، كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ..»، فنفهم من السياق أنه يقصد الدين الإسلامي، بدلالة الخطاب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».

(ثالثا): فإذا كانت كلمة «لِّيَتَفَقَّهُوا» لا علاقة لها بفقه المذاهب السلفية، وكلمة «الدِّينِ» لا علاقة لها بالعلوم الشرعية السلفية، لعدم وجود إشارة إليها في سياق الآيات التي وردت فيها، إذن فما هو «الدين» المطلوب التفقه فيه، حسب ما يُفهم من سياق الآيات؟!

إن آيات سورة التوبة، بوجه عام، جاءت تحدد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، من مشركين ومنافقين، وتكشف عن مدى العداء الذي يحمله هؤلاء تجاه المسلمين، ومن ذلك نقض المعاهدات، وخيانة المسلمين والغدر بهم، وقتالهم في الأشهر الحرم..، وعلى الجانب الآخر تأتي الآيات تأمر المسلمين أن يكونوا على حذر ويقظة دائمة لمواجهة هذه الانتهاكات العدائية غير الإخلاقية.

إننا إذا تدبرنا سياق آيات سورة التوبة، إلى ما بعد «الآية ١٢٢»، سنقف على معنى «الدين»، المطلوب «التفقه» فيه، وسنعلم أنه النظام «القانون» العسكري الواجب على القادة العسكريين أن يفقهوه، قبل الخروج «النفير» لقتال العدو.

لقد ورد الأمر بـ «النفير» في «الآية ٣٨»: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ»، وفي «الآية ١٢٢»: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»، ثم تدبر قوله تعالى بعدها «الآية ١٢٣»: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً»!!

إذن فسياق الآيات يتحدث عن موضوع محدد يتعلق بـ «فقه الحروب»، ولا علاقة له بالعلوم الشرعية، ولا بفقه أئمة السلف، الذي ظهر بعد أحداث «الفتن الكبرى»، وتفرق المسلمين إلى فرق متخاصمة متقاتلة.

إن «الآية ١٢٢» تتحدث عن واقع معاصر، تحذر المسلمين من التحرك جميعا لقتال العدو، فيجب أن يسبق هذا التحرك إرسال مجموعات استطلاع تراقب أحوال العدو، وترسل بالمعلومات إلى القيادة العسكرية، وهو ما يُعرف اليوم بالتكتيك الأمني والاستخباري، لاختيار أنسب الطرق للهجوم، وهذا ما أشارت إليه الآية «٧١» من سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا».

تدبر قوله تعالى: «خُذُوا حِذْرَكُمْ»، ثم قوله بعدها «فَانفِرُوا»، وعلاقته بالنفير في «الآية ١٢٢»، ثم قوله بعدها: «فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا»، أي أنه بناء على المعلومات الواردة للقيادة العسكرية يكون اختيار الأسلوب المناسب للقتال، فإما أن يكون التحرك عن طريق جيوش متفرقة: «فَانفِرُوا ثُبَاتٍ»، أو تحرك جماعي: «أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا»!!

ونلاحظ أن هذا التحذير الذي ورد في الآية «٧١» من سورة النساء: «خُذُوا حِذْرَكُمْ»، هو نفسه التحذير الذي ورد في «الآية ١٢٢» من سورة التوبة: «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»!!

إن الجيوش الموزعة على البلاد، وعلى المناطق المختلفة، عليها بعد عملية الاستطلاع أن تبلغ (القوم) بنتيجة هذا الاستطلاع، ليكونوا على يقظة وحذر!!

(رابعا): إن قوله تعالى: «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»، يُبيّن أن هناك طائفة نافرة من كل فرقة، خرجت للتفقه في الدين، بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقا، وليست طائفة قاعدة في المسجد، تدرس فقه المذاهب الإسلامية على يد رسول الله، وإلا لجاء سياق الآية: «فلولا نفرت طائفة»، و«قعدت طائفة»، «ليتفقهوا في الدين»!!

إنه يستحيل أن نفصل «الآية ١٢٢» عن سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها، لأن هذا السياق هو الذي حدد لنا معنى «النفير»، وأنه الخروج للقتال، ومعلوم أن رسول الله كان على رأس الجيش الخارج للقتال، وليس قاعدا في المدينة تأتيه الطوائف ليتفقهوا في الدين، بدليل قوله تعالى في نفس السياق «الآية ١٢٠»:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ»!!

والإشكال هنا هو: على فرض أن كل فرقة نفرت منها طائفة لتتفقه في مسائل الشريعة على يد رسول الله، لتبلغ قومها إذا رجعت بما فقهته، إذن فما موقف باقي الطوائف التي لم تنفر للتفقه في الدين، أثناء فترة القتال؟! ثم ما علاقة هذا التفقه، المفترض أنه قائم أصلا بين الصحابة في السلم والحرب، خلال عصر الرسالة، بفقهاء المذاهب الإسلامية الذين فرقوا المسلمين إلى شيع متخاصمة متقاتلة؟!

(خامسا): وعلى أساس ما سبق بيانه، يمكننا فهم الآية على النحو التالي:

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً»: أي ليخرجوا إلى القتال جميعا، «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ»: فلتخرج أولا طائفة من كل فرقة من الفرق المحاربة، «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»: ليستطلعوا أحوال ونظام العدو، ويجمعوا عنه المعلومات، «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ»: والعودة لإبلاغ قادتهم وأقوامهم بهذه المعلومات، «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»: فيضعون الخطط، ويوفرون الإمكانات المناسبة لمواجهة هذا العدو.

والسؤال: كيف يجرؤ أئمة السلف والخلف، على تحريف الكلم عن مواضعه، لإعطاء شرعية قرآنية لمنظومة الفقه السلفي، متجاهلين هذه الجمل: «لِيَنفِرُوا كَافَّةً»، «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ»، «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»، والتي يستحيل أن تُحمل على معنى التفقه في العلوم الشرعية التي صنعها أئمة السلف بأيديهم؟!

لقد نزلت نصوص «الآية القرآنية» لتَحكُم لا لتُحكَم، لذلك يجب أن يكون لدى المؤسسات الدينية الرسمية:

أولا: رؤية قرآنية متكاملة لمفهوم «الدين الإسلامي»، وهل هو دين فرقة من الفرق الإسلامية أم دين المسلمين جميعا!!

ثانيا: فقه قرآني معاصر، يشارك في إعداده نخبة من العلماء من كافة التخصصات العلمية، يُخرج أولا المسلمين من ظلمات التفقه المذهبي في الدين، إلى نور «الآية القرآنية» الذي يهدي الناس جميعا إلى صراط ربهم المستقيم.

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

معلومات:

* رجال الدين: مصطلح يطلق على من تخصصوا في العلوم الشرعية، فأصبحوا وحدهم من لهم الحق في التحدث باسم الشريعة دون غيرهم، والحكم على الناس بالكفر أو الإسلام، ولا شأن لهم بالحكم والسياسة، ولا بأفعال الحاكم وتصرفاته.

* المذاهب الإسلامية: هي مجموع آراء وفتاوى أئمة السلف، ارتبطت ببعضها ارتباطًا جعلها تمثل وجهة نظر صاحبها الدينية، وأصبح يُذْهب إليها لمعرفة أحكام الشريعة الإسلامية، وأول المذاهب الفقهية هو المذهب الحنفي، توفي صاحبه عام «١٥٠هـ».